الإيقاع العروضي:
أُسُّ الشعرية العربية القديمة

د/ زروقي عبد القادر (*)

إنَّ الفصل بين الشعر والنثر، قد حدده العرب القدامى بخصائص شكلية خارجية ــ الوزن والقافية ــ بعيداً عما يمكن أنْ يحمله النص من معنى، وبغضٍّ النظر كذلك عمّا يشكّله من سمات تجعل منه نصاً أدبياً أو لا أدبياً، بذلك يكون الوزن هو السمة الأولى التي تميز الشعر عن النثر، لذا غدت شعرية الإيقاع العروضي، أو الموسيقى الشعرية، من مرجحات الشعر على النثر؛ لأن اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الإسماع، ولم تستقرّ عنه إلاّ المفرطة في اللفظ، أما إذا وُزِنَ وعقدت قوافيه، ائتلفت أشتاته، وازدوجت فرائده، فيكون التأثر به في منتهى حدّه[1].

من هنا كانت من مهمات الوزن وقاية الشعر من التلاشي، وجَعْل من "الشعرية صفة حاضنة لهويته والوزن أمارة مانعة لنوعه. بالوزن والشعرية

(*) أستاذ محاضر للنقد الأدبي قسم اللغة والأدب العربي - كلية الآداب واللغات - جامعة ابن خلدون - تيارت - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

[1] - ينظر: ابن رَشيق، أبو عَلي الحَسَن المَسيلي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، سوريا، ط٥، ١٩٨١م. ١٩/١. والعسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٦م، ص:١٣٧وما بعدها. فالعرب « تدبروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام احسن مخرج؛ بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا، ورأوه باقياً على ممرّ الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعرا». النهشلي، أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم القيرواني، اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، تقديم وتحقيق الدكتور منجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٧م: ص:٢٤.

وقد اجتمعا يشرع الشعر في فتح مجراه»[1]، فالوزن والشعرية بهذه الخاصية يقيانه من التيه بين بقية الأنواع، لاشتراكه معها في ظواهر أسلوبية أخرى، أما النثر فيسعى إلى افتكاك الشعرية وصبها بين ثناياه، لترمي عليه من ملامحها ما يكفي ليرتفع إلى درجة الجمالية التعبيرية المتميزة، إلاّ أنَّ هذه الشعرية تبقى خصائص أدبية في إطارها العام، لا الشعرية في إطارها الخاص المتعلق الشعر دون النثر.

لذا لم ير جلّ النقاد العرب قديماً في الشعر ما يميزه عن النثر إلاّ ما يشمل عليه من الأوزان والقوافي المبنية على الانسجام الموسيقي في توالي وترتيب مقاطع الكلام، مضافاً إلى هذا تردد القوافي وتكرارها، وهو ما جعل الشعر يختص بالموسيقى العروضية، دون النثر الذي أُرسِل وعطّلت فيه شعرية الإيقاع العروضي، ومردّ ذلك اعتبار النقد العربي الوزن "قوام التفرقة بين أقسام الكلام»[2]. وإن كان ذلك مما اعتمده النقد الغربي الحديث في بعض رؤاه حيث لم يجد من الأشياء التي تفرق بين الشعر والنثر إلاّ الوزن الذي إذا أضيف للنثر أصبح شعراً، غير أنّ "جان كوهن" لم يعتبر الوزن كعلاقة بين الصوت والمعنى، وإنّما هو "بنية صوتية ــ دلالية ــ وبذلك يتميز عن المقومات الشعرية الأخرى كالاستعارة مثلا، التي توجد في مستوى الدلالة فحسب»[3]. فالشعر لا يقوم على المعاني والألفاظ وحدهما، بل لابد أنْ يصحبهما الوزن ليكون الكلام شعراً، وعندئذ يصبح الصفة التي

[1] ـ اليوسفي محمد لطفي، الشعر والشعرية، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م: ص:٢٧١. وينظر: عبد العظيم محمد، في ماهية النص الشعري، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤م: ص:١٩٥.

[2] ـ عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة الشاعرة: مكتبة غريب: الفجالة: القاهرة: (د.ت.): ص:١٥. ينظر: أنيس إبراهيم، موسيقى الشعر، ط٤، دار العلم، بيروت، ١٩٧٢م: ص:١٩، ٢٧. ينظر: يونس عبد الحميد، الأسس الفنية للنقد الأدبي، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م: ص:١٢٣

[3] ـ جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٦م ص:٥٢. وينظر: ص:٢٩.

تتحددّ بها نوعية الشعر، فتوافق التركيب اللغوي والوزن، فهو يوفّر للشعر شعريته، ولو حُلَّ الكلام لبطل ذلك المعجز الذي هو الشعر القائم على الوزن. لذلك بطُلت ترجمة الشعر عموماً ولم يُجز تحويله من لغة إلى أخرى، ومتى فُعِل به كذلك انقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضعُ التعجب منه، وصار كالكلام المنثور، فللكلام الموزون إيقاعٌ إذاً، فهو ينشأ من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فتطرب له النفس. مما يؤهّل الوزن لأنْ يصبح عنصراً هاماً وشرطاً ضرورياً، ومع ذلك فهو لا يكفي وحده ليجعل من القول قولاً شعرياً[1].

إن هذه الـــ"شكلية الشعرية" قد أصرّ عليها كلٌّ من "الجاحظ" و "ابن طباطبا" من قبلُ، والسرّ في ذلك أنها تستوجب عدم ترجمته، وتدفعه للاستعصاء عليها[2]، وهذا يكشف لنا عن أسرار الشكل في الشعر العربي القائم على الوزن الذي يدفع بالنص أنْ يعدل عن بقية النصوص الأخرى، لذا استقر عليه. فإنْ جُرِّد منه فلا يعدُّ شعراً.

---

[1] ـ ينظر: أبو نصر الفارابي: كتاب الشعر، تحقيق الدكتور محسن مهدي، بيروت، مجلة شعر، العدد، ١٢، المجلد الثالث، خريف ١٩٥٩م: ص:٩٢/٩١.

[2] ـ ينظر: الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦: ٥٣/٣. ينظر: ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٤م: ص:١٥. ينظر: أبو نصر الفارابي: كتاب الشعر: ص:٩٢
لعل ربط الشعر بالوزن والقافية وخاصة الإيقاع الموسيقي هو الذي دفع الجاحظ بالقول باستحالة ترجمة وقله على الصورة التي يحتفظ فيها على رونقه وجماله. حين قال « والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل. ومتى حوّل تقطع نظمه، وبطل وزنه وذهب جنسه، وسقط موضع التعجب منه، وصار كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك، احسن وأوقع من المنثور الذي حوّل عن موزون الشعر. الجاحظ: كتاب الحيوان: ٦٠/١.
وهذا قريب مما سماه صاحب المثل السائر بحل الأبيات الشعرية ونثرها، فلا يحصل الناثر جراء عمله هذا إلا انه « أزال رونق الوزن، وطلاوة النظم لا غير « لأن لشعرية الوزن، أو الإيقاع العروضي، نكهة خاصة فإن زالت، زالت معها أدبية النص. ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة، ط١، مكتبة نهضة مصر بالفجالة،١٩٥٩: ١٣٠/١. كما تطرق النقد الغربي الحديث إلى ما يرتبط بترجمة الشعر وانتهى إلى تلك النظرية الجاحظية، انطلاقا من أن الشكل هو لسان حال الشعر، فترجمة القصيدة إلى النثر يمكن أن تكون صحيحة إلى ابعد مدى نريده، إلا أنها لا تحتفظ في الوقت نفسه بأي قدر من الشعر الكامن في الشكل. فعبر عن ذلك جان كوهن بقوله: « لأن الأمر يعود إلى العلاقة (...) فمعنى الترجمة هو الاحتفاظ بالمادة (...) لأن الشكل هو الذي يحمل الشعر، فيمكن أن نصل بترجمة قصيدة إلى النثر، اقصى ما نريد من الدقة دون الاحتفاظ، رغم ذلك، بشيء من الشعر». جان كوهن: بنية اللغة الشعرية: ص:٣٦.

أمّا المرزوقي فيجعل الوزن والموسيقى من عمود الشعر؛ لأن هذه الأخيرة تلحم أجزاء النص وتلائمها. فيما أوقف "ابن سينا" جودة الشعر على الجمع بين الخيال والوزن، فلا تقوم قائمة للشعر عنده إلاّ بالصورة والوزن، فهما قوام القول الشعري، أمّا "عبد الكريم النهشلي" فقد حصر الشعر وقيّده بالوزن(١). بينما ردّد ابن رشيق المنهج نفسه الذي بدأه "الجاحظ"، مروراً بما طرحه الفلاسفة العرب الذين استوحوا فكرهم من النظرية اليونانية الرابطة بين عنصري التخييل: المعنى أو الصورة والوزن، من هنا ذهب ابن رشيق إلى اعتبار الوزن "أعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية"(٢).

ومع ذلك إنّ ابن رشيق لم يُفْرِد الوزن بالخصوصية بشكلٍ مطلق غير مقيد، وذلك حين فسح المجال للقافية وسمح لها أن تتبوأ مكاناً لا يقلّ أهمّية عنه، فيجعل منها "شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يكون شعراً حتى يكون له وزن وقافية"(٣). بذا يكون ابن رشيق قد وقف موقفاً وسطاً، بين الاتجاهين، أصحاب الاتجاه اليوناني العربي ـــ الفلاسفة ـــ وأنصار الاتجاه الشكلي العربي كـــ "الباقلاني" مثلاً حين أقصى المضمون أو المعنى عن أسس الشعر ومقوماته، واعتبر الشعر في اتفاق وزن الأبيات واتفاق قوافي تلك الأبيات و "متى اختلف الرويّ خرج عن أنْ يكون شعراً"(٤).

---

[١] ـ ينظر: ابو علي المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، نشر احمد أمين وعبد السلام هارون، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م: ٩/١ وابن سينا: ابن سينا،أبو علي الحسين، الشعر، ضمن كتاب الشفاء، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦: ص:٣٣، وأرسطو طاليس: فن الشعر، مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣: ص:١٦٨. ينظر: عبد الكريم النهشلي: اختيار من كتاب الممتع: ص:٣١.

[٢] ـ ابنُ رَشيق: العمدة : ١٣٤/١.

[٣] ـ ابنُ رَشيق: العمدة : ١٥١/١.

[٤] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢: ص:٥٦.

ابن رشيق لم يقدم الوزن تقديماً مطلقاً، ولم يهمله كلّ الإهمال، وإنَّما ساوى بينه وبين القافية في العملية الشعرية. وجعل حديثه عن الوزن، يتوقف على ربطه بعنصر من عناصر الشعر التي تحقق له بُعْدَ الجنس الأدبي، فكان العنصر الإيقاعي الذي يسعى إلى توحيد أجزاء القصيدة من خلال ما يوفره من إيقاع مميز ينتهي إليه كل بيت منها. فهو ينظر إلى الوزن انطلاقاً من أنّه عنصر جمالي خارجي مرتبط بالبعد الدلالي للكلمة الشعرية. لذا لم يتصور الشعر دون القافية، التي غدَتْ كالشريك المختص بالشعر، فلا يكون مسمىً للشعر ولا وجود له ما لم يكن له وزن وقافية. فالقافية بالمنظار الدلالي تُجبر الخطاب على التمام، بعدما يُخَيّلُ للسامع أنَّ الدلالة قد توقفت عند نقطة ما. فهي التي تدفعه إلى الارتقاء في فضاء الأدبية، وبدونها لا يتمّ له ذلك، فكيف لها ألاّ تشارك الوزن فيما يمكنه أن يقدّم لأدبية النصّ؟.

هذا الاهتمام من ابن رشيق بالوزن، خاصة ما تعلق منه بالقافية من الوجهة الدلالية، فرّده عن النقاد القدامى، وأكسبه احترام النقاد المحدثين، فأقروا له بذلك، واعتبروه سبباً في استجماع تفصيلات دقيقة بخصوص هذا الموضوع. منها أنّه لا يتصور شعراً دون وزنٍ، لذا كان الصواب عنده، أنْ لا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته[1].

الرأي ذاته أقرَّ به النقد الغربي، فـ "هيغل" يعتبر "أنَّ الشعر يحتاج إلى الوزن أو إلى القافية (...) أكثر من حاجته إلى القول الجميل، الثرّ بالصور"[2]. أما "جان كوهن" فيذهب مذهب ابن رشيق في النظر إلى الوزن لا على أساس الإيقاع العروضي فقط، فهو "ليس عنصراً مستقلا عن القصيدة

---

[1] ـ ينظر ابنُ رَشيق: المصدر السابق: ٢٩٠/١، وجمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٦م: ص:٢٠٧، ومحمد عبد العظيم: في ماهية النص الشعري: ص:٥٣.
[2] ـ هيغل: فن الشعر: ترجمة جورج طرابيشي: ط١: دار الطليعة للطابعة والنشر: بيروت: ١٩٨١م: ص:٧٥.

يضاف إلى محتواها من الخارج، بل جزء لا ينفصل من سياق المعنى، وهو بهذه الصفة لا ينتمي إلى علم الموسيقى بل إلى علم اللغة»[١]. فهو يقُرن الوزن والقافية بالمعنى، ويتمثّل الوظيفة الحقيقة للقافية غير متحققة ما لم تُوضَع القافية في علاقة مع المعنى.

الوزن عند ابن رشيق بنية صوتية موسيقية، تساهم في تجسيد التجربة والدلالة، فهو يتمتع بوجودٍ سابق للقصيدة، لذا هو تصور ذهني مجرد يتخذ الشاعر منه قالباً إيقاعيا يملؤه بالألفاظ والمعاني؛ وعندئذ يكون بمثابة الأرضية التي تنغرس على أديمها بقية العناصر الدلالية والمكونات الإيقاعية[٢]. كما أنه عنصر أساسيا ملازماً لكل خطاب شعري، بما فيه من القوانين التي تحدد للشاعر المجال الذي يتصرف في داخله، حسب ما يمليه عليه ذوقه وطبعه، لذا يجب أنْ تكون مقاديره الإيقاعية مطابقة للمأثور من أوزان الشعر بكل قواعدها ومقاييسها، ليصبح القصد الداعي منه صوغ الكلام صياغة موقّعة موزونة تكسبه هوية الشعر[٣]. فيكون القصد الأساسي من الوزن بعْث التناسق والتوازن في التعبير عن العواطف، فهو يساعد على "تنسيق الجمل وتوازنها، وفي التوازن سرّ من أسرار الجمال»[٤]. ذلك هو مفهوم الوزن حتى يؤدي وظيفته المتعلقة بالفصل بين النثر والشعر أولاً، ونقل الكلام من التواصلية إلى الأدبية ثانياً.

وقد وقف النقد العربي القديم على تحديد ماهية الوزن معتبرا إياها ميزة سطحية خارجية قد يتمتع بها الكلام، لكنه يناقض الشعر؛ لأنه يكون

---

١ - جون كوين: بناء لغة الشعرية، ترجمة الدكتور أحمد درويش، ط٤، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م: ص:٥٥. وينظر نفسه: ص: ١٠٢.

٢ - ينظر: الدكتور جودت فخر الدين: شكل القصيدة العربية، في النقد العربي حتى القرن الثامن هجري، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٤م: ص:٣٩، والدكتور محمد لطفي اليوسفي: الشعر والشعرية: ص:٢٧٠.

٣ - ينظر: الدكتور ميشال عاصي: مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ط٢، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨١م: ص:١١٨/١١٩.

٤ - مخائيل نعيمة: الغربال، ط٢ عشر، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨١م: ص:١١٧. وينظر: محمد عبد العظيم: في ماهية النص الشعري: ص:٥٥.

حينئذ نظما لا شعرا. فليس كل كلام موزون شعراً بالضرورة، إذْ لا يُعْتَبَرُ "كل من عقد وزناً بقافية فقد قال شعراً، الشعر أبعد من ذلك مراماً، وأعزُّ انتظاماً»[١] ولو كان الشعر مجرد ألفاظ موزونة، وتفعيلات مرصّفة، وكلمات مسجوعة، لأصبح نوعاً من القواعد الثابتة، والقوالب الجاهزة، تكتسب بالدربة، ولصار كل من بنى بيتاً، وخاض بحراً، وأقام وزناً شاعراً.

فالشعر لم يحصَر في خصيصتي الوزن والقافية، بل عُلِّق أيضاً بالجانب الدلالي؛ بل لربما كان الأولى أهمية ليتضح أنَّ الشعر فعل إرادة كونه يرجع إلى القصد، فهو لا يتشكل عبثاً ولا يحضر كيما اتفق، وإنَّما يعامل معاملة كلام خاص، وتتمثل هذه الخصوصية في كونه شعراً.

فالوزن أمر شكلي ومجرد عامل تقني؛ وفي الوقت ذاته عنصر من العناصر القارة التي تضفي على النص الكثير من السمات الجمالية، إلاّ أنَّه لا يكون على سبيل الاتفاق والصدفة، لذا أشار ابن رشيق إلى أنَّ الكلام الذي يأتي موزوناً، لا يعتبر شعراً إذ لابد من توفير "النية والقصد» فمن الكلام ما وزن وقفي وليس بشعر لعدم توفر عنصري الصنعة والنية "كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي»[٢]. فالقصد أنْ يقصد القائل إلى إعطاء الموزون

---

[١] ـ المرزباني: تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٥م: ص:٥٤٧.

[٢] ـ ابنُ رَشِيق: العمدة : ١١٩/١. والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم "هل أنت إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفِي سبيل الله مَا لقِيتِ" وإن كان هذا الحديث كلاماً متزنا، لأنه مشطور الرجز، إلا أنه لا يعد شعرا، فهو لم يُبْنَ على القصد والنية؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد به الشعر ولا نواه؟ ينظر: ابن رشيق: العمدة : ١٨٥/١.

ويناقش الجاحظ هذه القضية في الكلام العادي العامي فيقول: « لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم. لوجدت فيها مثل: مستفعلن، مستفعلن كثيرا، ومستفعلن مفاعلن. وليس احد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات. وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يعلم انه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا « الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، بيروت، د.ت، ٢٨٨/١-٢٨٩

صفة الشعر، والنثر "المنظوم ليس هو الشعر"[١]، ولعل ذلك ما يومأ إليه حديثاً بالمقصدية أو القصدية.

إنَّ النقد الحديث لم يغفل ما سماه ابن رشيق بالنية؛ لأننا على حسب "رولان بارت" سنعثر "في كل كتابة على التباس يحيط بموضوع هو في آن لغة وقسْر: يوجد في عمق كل كتابة، "ظرف"غريب عن اللغة، هناك ما يشبه نظرة نية لم تعد هذه هي نية اللغة، وبإمكان هذه النظرةأنْ تكون شغفاً باللغة كما هو الحال في الكتابة الأدبية"[٢] لتجمع الكتابة بين حقيقة الأفعال ومثاليات الغايات.

"رولان بارت" يرجع النية إلى الكتابة أي إلى فعل الإبداع الذي ينبثق من خلفية ما، فإذا كانت لمجرد المتعة الأدبية والرضوخ لفطرة الإبداع عند الأديب بالدرجة الأولى تشكل النوع الفني الأدبي من الكتابة، فكان الاهتمام بالشكل أولاً وقبل كل شيء، وهنا تكون النية مصاحبة للعملية الإبداعية، على أنَّ ما يقام به هو لإشباع رغبة فنية مبدئياً. أما إذا كان الدافع للكتابة أمراً آخر غير الجانب الفني البحت فإنَّ نية اللغة، والتي من ورائها مقصدية مبدعها تكون منصبة على الغرض الأساسي أو هي حافز العملية الإبداعية برمّتها، ومن ثم تكون غاية لنص الرسالة لا الجانب الشكلي حتى وإنْ تمثلت فيه ملامح فنيات اللغة الأدبية وتقنياتها.

---

١ - هيغل: فن الشعر: ص:٧٥. لذلك اعتبر النقد العربي القديم انّ القصْديَة أو النية في قول الشعر ضرورة، فالباقلاني يؤمن بضرورة القصدية في القول الشعري حتى تصحّ تسميته شعراً، وتصح تسمية قائله شاعراً، فإن «الشعر إنّما يطلق، متى قصد القاصد إليه».أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن: ص:٥٤.
ولذلك يذهب ابن سينا إلى اعتبار أن الوزن يدخل على الأقاويل ولكنها تظل، مع ذلك، مجرد أقوال تشبه الأشعار وليست بالحقيقية أشعاراً. هكذا ينتفي عن الأقاويل الشعرية التي تسمى أشعاراً، وهي دون قصدٍ، معنى الشعرية، إذ ليس لها من حقيقة الشعر إلا الوزن فقط. ينظر: ابن سينا: الشعر: ص:٣٣.

٢ - رولان بارت: درجة الصفر للكتابة: ترجمة محمد برّادة، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، المغرب، ١٩٨٠ م، ص:٤١.

هذه الأهمية البالغة لــ "النية" في تحقيق شعرية الشعر وأدبية النص الشعري اعتباراً لوزنه، دفعت ابن رشيق إلى تقديمها على الوزن الذي وسّطه أثناء سرده لحدود الشعر، الذي يتشكل بعد النية ضمن أربع مقومات، اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فالنية كانت السابقة كونها تميز الشعر عن غيره من الكلام المنظوم، ثمّ يأتي اللفظ الذي ينبغي أنْ يتوافق مع الوزن حتى يحقق المعنى الشعري الذي رتبه قبل القافية بحكم تأثيره فيها وخدمته لها لذلك اتبعت له.

أما إذا خلا الشعر من النية واللفظ والمعنى الشعريين فلم يكن شعراً، حتّى وإنْ كان موزوناً مقفى. فذاك هو النظم بعينه. وهنا نقف على ما عاناه "جان كوهن" في إطار نقده للقصيدة النثرية المؤسس على منطلقه القاضي بجعل "الوزن هو وسيلة لجعل اللغة شعراً"[1]، بل واعتباره شكلا لغوياً تعاقديا صارم التقنين، ليكون للقصيدة وجود شرعي غير قابل للنزاع، وهكذا كان يعتبر القصيدة ما طابق قواعد الوزن. والنثر ما ليس كذلك. فتؤخذ القصيدة بما تتميز به من وزن من خلال تطابقها لقواعده، أما النثر فيعني كل ما خالف ذلك من القول.

وهكذا اعتبر من جاء بعد ابن رشيق عدم أحقية الكلام الموزون باسم الشعر ما لم يقصد إليه بداية، فابن رشد يرى، أنَّ كثيراً ما يوجد من الأقاويل التي تسمى "أشعار" ليس فيها من معنى الشعرية إلاّ الوزن فقط؛ بل يمضي إلى حدّ إنكار صفة الشعرية عليها فيعطلها، معلناً أنْ تسمّى أقاويل وكفى، أحرى من أنْ تسمى شعراً. والقول ذاته عند "السكاكي" الذي يرى أن الشعر قول موزون لكن عن تعمُّد. كما يتوجه "حازم القرطاجني" إلى المتلقي لينكر

---

[1] ـ جون كوين: بناء لغة الشعرية، ص:٧٤. وينظر: جان كوهن: بنية اللغة الشعرية: ص:١٠.

عليه اعتقاده، في كون أنَّ كل كلام مقفى وموزون شعراً، معتبراً ذلك رعونة منه وجهلا؛ لأنه ظن أنَّ الشعرية في الشعر إنَّما هي نظم أي لفظ كيفما اتفق نظمه[١].

إنَّ ما اتفق من كلام الناس عفواً مع بعض تفاعيل الوزن، ليس يدخل مطلقاً في دائرة الشعر، فـ "شعرية الشعر لا تُحقَّق بالوزن؛ لأن بعض المنظومات لا يجمعها مع الشعر سوى الوزن"[٢] وقد وجدَ هذا الرأي استحساناً فآمن به النقد العربي الحديث وتبنّاه، بفكرة "أنَّ كل من يصدر عنه كلام فيه وزن وتقفية عفو الخاطر دون تعمد مقصود ليس بشاعر"[٣]. والشعر ما قُصد فيه إلى الوزن والقافية قصداً مبدئيا[٤].

من خلال هذه المناقشة للنقاد والفلاسفة لقضية الوزن ندرك أهميتها في إثبات شعرية الشعر أولا، ونتوصل ثانياً إلى ماهية الوزن التي لا تنته عند البعد الإيقاعي، وهو ما رمى به ابن رشيق قبل هؤلاء الثلاثة ــ ابن رشد، والسكاكي، و"حازم القرطاجني" ــ في تعريفه للشعر فيرفعه عن الوزن والقافية، مع احتفاظه بهما كميزة أساسية للشعر، ليضيف كلا من اللفظ والمعنى فيتضح أنَّ الإطار الموسيقي بمفرده لا يرفع النص إلى الأدبية؛ لأن كثيراً "من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر"[٥]

[١] ـ ينظر: ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تحقيق محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م: ص:٦٠- ٦٣. وأبو يعقوب يوسف السكاكي: مفتاح العلوم: المكتبة العلمية الجديدة: بيروت: (د.ت.): ص:٢٤٥، وحازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦: ص:٢٦-٢٧.

[٢] ـ الدكتور الشيخ بوقربة: مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، مخطوط، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها، ١٩٩٩/٢٠٠٠: ص:١٤٥.

[٣] ـ الدكتور عبد الحميد يونس: الأسس الفنية للنقد الأدبي: ص:١٢٣

[٤] ـ ينظر: الدكتور عبد الملك مرتاض، أ ـ ي ،دراسة سميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م: ص:١٤٥ـ ١٤٦.

[٥] ـ ابنُ رَشيق: العمدة : ١/١١٩.

هذا الرأي يعزّز التأسيس الذي ذهب إليه ابن رشيق، ويجعلنا نعتبر نظريته القائمة على الجمع بين النية والوزن، وبين باقي العناصر المكونة لحدود الشعر، نظرية شاملة بعيدة عن المحلية الضيقة، ومحسوبة كقانونٍ من قوانين الشعر عامة لا العربي بمفرده؛ لأننا لو تركنا النية أو القصد واللفظ والمعنى وأبقينا على الوزن فإننا نحصل على شعر غير شعري وهو ما يعادل النظم. وبالرغم من ذلك يبقى الوزن والقافية سِمَتَيْ الشعر الأساسية. فإنَّهما لا يمثلان وحدهما الشعرية؛ لأن هناك عناصر شعرية أخرى.

فالإيقاع العروضي لم يكن أبداً هو أدبية الشعر ولا شعرية الأدب؛ لأنه لا يكفي وحده كمميز للشعر من النثر، أو العكس. فكأيّ من شعر ليس فيه من الشعرية غير الأصوات الجوفاء التي تماثل الطبول، لذلك كان غياب الوزن أحياناً في الكلام المرسل المنثور غير منافٍ للشعرية[1].

وهذا ما يجعل من الإبداع عامة ــ والأدب خاصة ــ فوق الأصوات الجوفاء، وإنَّما بأشراط أخرى كجمال الصورة، وكثافة الدلالة، ورحابه الخيال، وأصالة الابتكار، ودفء العاطفة، وحسن توظيف اللغة بوجه عام، هذا ما يضفي على النص أدبيته التي يجب أنْ تميزه تميزاً. فتكون قيمة الوزن في الشعر غيرَ مُتَحَقِّقَةٍ إلاّ إذا اتَّحدَ ببقية العناصر في القصيدة اتحاداً تاماً[2]، ليصبح الوزن في النهاية "تناول للمادة اللغوية بأبعادها الصوتية"[3].

---

[1] ـ ينظر: أبو نصر الفارابي: كتاب الشعر: ص:٩٢.
[2] ـ ينظر: الدكتور عبد الملك مرتاض: أ ـ ي: دراسة سميائية تفكيكية: ص:١٤٥ـ ١٤٦. والدكتور محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م: ص:٢٢٩.
[3] ـ كمال أبو ديب: في الشعرية، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٧م: ص:٨٩.